

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

هذا الكتاب هو سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميت القسم الأول (الإمام محمد بن علي السنوسي، منهجه في التأسيس: التعليمي، الحركي، التربوي، الدعوي).

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب الأول من سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي)؛ أن اهتمامي بالتاريخ كانت بدايته خلف أسوار السجن السياسي في ليبيا، وقد أكرمني الله تعالى أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء بلادنا المعتقلين من ذوي الثقافات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والاتجاهات المتباينة، وقد حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم، وتاريخهم للأجيال القادمة، وقد استمعت إلى بعض أبناء الحركة السنوسية وهم يتحدثون على ما قام به الدعاة والمجاهدون من أبناء الحركة في إعزاز دين الله، ونصرة أهله والدعوة إليه في الصحراء الكبرى، وغرب ووسط إفريقيا، وبلاد الحجاز، ومصر والشمال الإفريقي، وكان لذلك الحديث أثره في نفسي، ومن ثم اهتمت بجمع المعلومات عن كل ما يتعلق بالحركة السنوسية، من أجل دراستها، دراسة تحليلية وافية، والكتابة عنها، وكنت شديد

الفرح بكل معلومة أحصل عليها من أفواه رجال الحركة، فأكتبها على أوراق الصابون، وأوراق البسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، والجرافيت التي كنا نستخرجها من بطاريات الشحن الصغيرة، لأنه كان من الصعوبة بمكان الحصول على أوراق أو أقلام في المعتقل.

وبعد خروجي من المعتقل في 3/3/1988 م وقد أكرمني الله بوضوح الهدف، والشعور بوجوب الدعوة إلى الله تعالى، والاستعداد للتضحية في سبيلها.
قال الشاعر:

خرجنا من السجن شم الأنوف كما تخرج الأسد من غابها
نمرّ على شفرات السيوف ونأتي المنية من بابها

وعندما خرجنا من المعتقل، كانت الصحوة الإسلامية قد امتدت في شرايين المجتمع الليبي، لقد غمرني سعادة كبرى بظهور التيار الإسلامي، وامتلاء المساجد وانتشار الحجاب، وظهور التدين في المناسبات الاجتماعية إلا أنه بعد احتكاكي ببعض أبناء الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسنة، كما وأني لمست انقطاعاً واضحاً عند هذا الجيل المبارك عن تاريخ أجداده وجهادهم ضد فرنسا في وسط إفريقيا والصحراء الكبرى، وجهادهم العظيم ضد إيطاليا في طول البلاد وعرضها، وجهادهم ضد بريطانيا على الحدود المصرية الليبية، وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقي إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع، لذلك ازدادت قناعتني بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط، بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وبعد خروجي من بلادنا العزيزة لطلب العلم التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وكانت فكرة كتابة التاريخ قد استقرت في ذهني، وشرعت في تنفيذها مستعيناً بالله العليم الحكيم، ومتضرعاً إلى التواب الرحيم أن يلهمني الصواب، ويسر لي الأسباب، وبعد عشر سنين ظهرت تلك الفكرة بفضل الله ومنه وتوفيقه إلى حيز الوجود في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي طبع منها ستة كتب، وانتشرت في المكاتب العربية، والمعارض الدولية، ووصلت إلى كثير من القراء، فكانت بين مادح وذام، ومنتقد ومستدرك، قال الشاعر:

إن تجد عيباً فسداً الخللاً جل من لا عيب فيه وعلا
وقال الشاعر:

من الذي ماساء قط ومن له الحسنى فقط
وقد وصلتي ملاحظات علمية قيمة أشكر إخواني على حسن نصحتهم، وجميل إهدائهم، وتشجيعهم، وأدعو الله العلي الكبير أن يوفقني وإياهم لخدمة دينه وسنة نبيه ﷺ، وتاريخ الإسلام المجيد.

وما أنا الآن أقدم للكتاب السابع وقد اطلع عليه بعض المختصين بعلم التاريخ، وقد قال أحد المؤرخين: إن ما يقوم به هذا الباحث الشاب رد عملي على كل من يريد أن يفصل ليبيا عن جذورها الإسلامية الممتدة في أعماق التاريخ، ومن النوادر اللطيفة عندما كنت أكتب في هذا الكتاب طرق باب بيتي مجموعة من الشباب الليبي المهاجر، فأدخلتهم وأكرمهم وبدأت أحدثهم عن الدرر، والجواهر، والأمجاد العظيمة التي يزخر بها تاريخ بلادنا المعاصر، فقال لي أحدهم: لا نريدك أن تكتب التاريخ وإنما نريدك أن تصنعه، فقلت لهم: أنتم تصنعونه وأنا أكتبه، فضحك الجميع، وما كانت تلك الكلمة لتثنيني عن هدفي الذي هيمن على نفسي ومشاعري وأحاسيسي، فبذلت له وقتي وجهدي ومالي سائلاً المولى ﷺ أن تكون أعمالي خالصة لوجهه الكريم.

إنني كلما توغلت في دراسة التاريخ ازدادت قناعة بأهميته في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وبناء الدول، ومحاربة الباطل، وإزالة الظلم، ونشر العدل. وقد أيقنت أن الأيام دول وأن الأحداث تتكرر على اختلاف في الزمان والمكان ولكنها تتكرر في إطارها العام، والتاريخ يمد القارئ بخصائص وسمات الأحداث فيسهل عليه الاتعاظ والاعتبار بأحوال الدول والشعوب والأمم والجماعات.

إن هذا الكتاب يعرف القارئ الكريم بالإمام محمد بن علي السنوسي الذي يعتبره الكثيرون حامل لواء النهضة الحديثة في ليبيا، ومرسي قواعدها، وموقد جذوة الإيمان في قلوب قبائلها.

يتحدث هذا الكتاب عن حياة هذا الإمام الذي بارك الله في علمه وعمله وأحيا الله به شعباً حمل لواء الدعوة والجهاد في الصحراء الكبرى، ووسط إفريقيا، ولم يتردد في بذل ماله ورجاله من أجل نصرة دين الله تعالى.

ويسلط الأضواء على جوانب متعددة في منهج الحركة السنوسية، ليبين للقارئ الكريم أن شعب ليبيا عندما أكرمه الله تعالى بداعية رباني استطاع أن يفجر طاقته الكامنة تحول إلى مجتمع إسلامي قوي حمل مشاعل النور في قلب إفريقيا المظلمة، وبذل الغالي والنفس في سبيل الإسلام، وقارع الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي في ملحمة من أروع ملاحم التاريخ المعاصر في الصراع بين الكفر والإيمان والحق والباطل والهدى والضلال.

ويوضح للقارئ الكريم أن ابن السنوسي يعتبر رائداً من رواد مدرسة الإصلاح الإسلامي في الشمال الإفريقي ووسطها وغربها، عمل على نشر الإسلام الصحيح، ومحاربة البدع، والخرافات، والشعوذة بأنواعها وأشكالها، التي لحقت به في عصورها المتأخرة في مشرقه ومغربيه على حد سواء.

إن هذا الجهد المتواضع يميظ اللثام عن شخصية علمية دعوية ربانية كان لها أثر ولا زال في ليبيا خصوصاً وإفريقيا عموماً، ويجب القارىء على كثير من الأسئلة التي يحتاجها المهتمون بدراسة الدعوات الإصلاحية، والتي يبحث عن إجابتها دعاة الإسلام في ليبيا خصوصاً.

ما هي رحلات ابن السنوسي العلمية؟ وما هي العلوم التي درسها؟ ومن هم شيوخه؟ وما سر نجاحه؟ وما هي صفاته؟ وكيف تعرف على أحوال المسلمين وأخلاقهم؟ وكيف استطاع أن يتصل بالكثير من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي؟ وما هي خطة عمله التي سار عليها؟ وهل استفاد من حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتجربة محمد علي باشا حاكم مصر؟ وما هو أسلوبه في التعامل مع الدولة العثمانية، وعلمائها؟ كيف تعامل مع الطرق الصوفية، والقبائل البدوية، والقبائل الوثنية؟ وما هي حقيقة الزوايا السنوسية؟ وهل استطاع ابن السنوسي أن يجعل من قبائل ليبيا قوة إسلامية يحسب لها حسابها الإقليمي، والدولي؟ وهل كانت مفاهيم الحركة السنوسية سلفية؟ وما هي علاقة ابن السنوسي بحركة الجهاد ضد إيطاليا وفرنسا؟ وهل كان من الممكن أن يخرج أبطال الجهاد، من أمثال أحمد الشريف، وعمر المختار وغيرهم لولا الله ثم جهود ذلك المصلح العظيم؟

نعم علامات استفهام كثيرة نحاول الإجابة عليها بإذن الله تعالى.

هذا وإنني لم آتٍ بجديد، وإنما وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيراً؛ فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيراً في كتابي هذا من الجهود التي سبقتني، ككتاب «السنوسية دين ودولة» لمحمد فؤاد شكري، و«الحركة السنوسية»، للدجاني، و«برقة العربية أمس واليوم» للأشهب، و«السنوسي الكبير» للأشهب، و«الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علي، و«المجموعة المختارة» للإمام ابن السنوسي التي أعاد طباعتها محمد عبده بن غلبون وإخوانه، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، كما أنني انتهجت منهجاً دعوتياً، تاريخياً يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، وليس معنى هذا التحكم في الحقيقة التاريخية، بل كشف الحقائق النيرة وتجريدها مما قامت به أقلام الأعداء من الدس والكذب والافتراء والتضليل، ومساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعاً لله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن الكريم، وسنة سيد الخلق أجمعين.

وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، وهي كالآتي:

الفصل الأول: الإمام محمد بن علي السنوسي، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم.
- المبحث الثاني: أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته.
- المبحث الثالث: إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة.

الفصل الثاني: البعد التنظيمي، والمنهج التربوي، والبعد السياسي عند ابن السنوسي، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: البعد التنظيمي.
- المبحث الثاني: المنهج التربوي.
- المبحث الثالث: البعد السياسي.

الفصل الثالث: أسلوبه الدعوي، وثروته الفكرية، وصفاته الربانية، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الأسلوب الدعوي.
 - المبحث الثاني: الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه.
 - المبحث الثالث: من أهم صفات ابن السنوسي.
- ثم نتائج البحث.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يبيّنني على كل حرف كتبه ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

المدخل

أحوال العالم الإسلامي قبيل ظهور الحركة السنوسية

بدأ الضعف والانحلال يدب في أوصال الأمة الإسلامية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين، وطهر بلاد المسلمين منهم، ومما زاد الأمر سوءاً احتلال التتار للممالك الإسلامية، وتمزيقهم للأمة، والعمل على إزالة معالمها الحضارية، والدينية، والعلمية، وشاءت إرادة الله النافذة أن يلفظ بهذه الأمة، فأكرم الله العثمانيين بالتمكين، وكان قمة ذلك التمكن في زمن السلطان محمد الفاتح الذي أجرى الله على يديه فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام 857 هـ/1453م، وبذلك عادت للأمة هيبتها، وقوتها، ومجدها، وعزتها، وتولى العثمانيون زعامة الأمة الإسلامية، وكان الشعب العثماني قد تميز بالحماس، وحب الجهاد، وعشق الشهادة في سبيل الله، وسلامة الفطرة، والبعد عن الأمراض الاجتماعية التي أصابت غيره من الشعوب، أضف إلى ذلك القيادة الربانية التي كانت تقود الشعب نحو ساحات الوغى، وتعمل على نشر الإسلام، وتزيل العوائق من أمام الأمم المفتوحة، ليعرض عليها الإسلام صافياً نقيّاً من كل شائبة، وهيمن الإسلام من جديد على زعامة العالم وقيادته، وأصبحت الدولة العثمانية تحكم في ثلاث قارات: أوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وتوغلت في أوروبا، حتى بلغت الجيوش العثمانية أسوار فيينا، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع، وقد جمعوا بين السيادة البرية، والبحرية، وبين السلطتين: الروحية وأنسانية⁽¹⁾.

«ولكن من سوء حظ المسلمين أخذ الترك في الانحطاط ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء، واستبداد الملوك وجورهم، وخيانة الأمراء وغشهم للأمة. وإخلاق الشعب إلى الدعة والراحة. وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب، وتنظيم الجيوش»⁽²⁾.

وأخذت ملامح القوميات العرقية تظهر على مسرح الأحداث في الدولة، وتفجرت الثورات في البلقان، وشرعت في تشكيل جمعيات قومية سرّاً، وعلناً، وبدأت التوجيهات

(1) انظر: إمام التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، ص 8، 9.

(2) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي، ص 148.

العلمانية تظهر في الأمة، وعمل اليهود والنصارى على تقوية هذه الاتجاهات المفسدة. فاليهود أرادوا الانتقام لأن العثمانيين منعوهم من فلسطين، والنصارى يريدون أن ينتقموا لحملاتهم الصليبية التي فشلت في تحقيق أهدافها أمام جهاد عماد الدين، ونور الدين وصلاح الدين.

كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية، تنخر في كيان الدولة العثمانية؛ فظهر من يدعو إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية... إلخ، وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، وأخذت الحركات الانفصالية تتكاثر، وأخذت الدول الأوروبية في دعمها، وتعد المشاريع لاقتسام تركة الرجل المريض، وكان العالم الإسلامي آنذاك منضوٍ تحت لواء الدولة العثمانية التي فقدت عوامل النهوض، وأهملت شروط التمكين، وتباعدت عن أسبابه، وتخلفت عن ركب الحضارة، فدخلت الأقاليم الإسلامية في دوامة التدهور، والظلام الحالك، والمحنة الشاملة، والجهل المطبق والظلم الفادح، والفقر المدقع، فتفجرت الثورات بدوافع مختلفة، فمرة بدوافع العرق والقومية، وأخرى دفاعاً عن النفس ضد الجور، والتعسف والظلم، وتارة بدافع الحقد، والتعصب، وكانت اليهودية والصليبية خلف تمزيق السلطنة، وإضعافها، فكثرت مصائبها، وتعددت جبهاتها، وأصبح مركز الخلافة مفككاً، ضعيفاً، متدهوراً، منحللاً، وقد أصيبت الولايات، كالجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، والشام والحجاز، بالضعف الشديد، والتدهور المريع، بسبب الظلم والاستبداد، وانتشار الجهل، وجمود العلم، وغياب القادة.

وصاحب هذا الانهيار في كيان الدولة أحداث خطيرة، كان لها أثر فعال على المسلمين وجميع جوانب حياتهم، الفكرية، والدينية، والعلمية والسياسية فمن ذلك:

أ - احتل الفرنسيون مصر عام 1798 م وظلوا فيها حتى عام 1801 م، وتمكن محمد علي باشا من الانفراد بحكمها بعد خروج فرنسا (1805 - 1848 م) وكان هذا الرجل مصيبة كبرى على الأمة، واستطاعت الدول الأوروبية، والمحافل الماسونية أن تحقق أهدافها بواسطته، فعمل على:

- 1 - تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كانت خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً، والمشرق عموماً.
- 2 - فتح البلاد على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين، كالمحافل الماسونية، والإرساليات التبشيرية، والأديرة والكنائس، ومدارس تتعهد التيارات المعادية للإسلام، وبت الأفكار المعادية للأمة.
- 3 - أتاح الفرصة لشركات أوروبية تحكمت في اقتصاد البلاد.
- 4 - منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع المسلمين منها.

5 - خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء، ولم يسمح للمسلمين أن يتكثروا من أجل أهدافهم السامية، وغير ذلك من المساوىء.

ب - وفي عام 1830 م احتلت فرنسا الجزائر، وفشلت الدولة العثمانية في منعها، وحاولت فرنسا جعل الجزائر قطعة منها، ثم امتد نفوذها إلى تونس عام 1881 م، ودخلت إلى السودان الغربي.

ج - احتلت بريطانيا عدن عام 1839 م وبدأت في توسيع نفوذها وسلطانها على دول الخليج العربي، وبعض بلاد الشام، وحاولت الدولة العثمانية وقف السرطان الصليبي الذي أنهك جسم الأمة ولكنها فشلت، وأصبحت الأمة تعاني من الآثار المترتبة بسبب ابتعادها عن شرع الله تعالى، فمن الناحية الاجتماعية، تفشى الجهل، وأصبح عاماً شاملاً لكل الديار الإسلامية، وضمير الإيمان، وتقاوست النفوس، وكان النزاع بين الأمراء مستمراً على حطام الدنيا، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحين، وولاية الدولة العثمانية همهم جمع الأموال، وتكثير الأملاك إلا من رحم الله، وأخذ الظلم الذي استشرى يعجل بزوال الدولة العثمانية، أما من الناحية العلمية، أصبحت الأمة في ليل حالك وظلام دامس، وتفشى الجهل في كل طبقات الأمة وفي جوانبها الثقافية كالآداب، والعلم، والصناعات، . . . وكان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجذب العلمي، وشبه الشلل الفكري، وأصبح في حالة غيبوبة، واستولى عليه النعاس الشديد، ومات فيه النشاط، والحيوية، والإبداع، والاجتهاد في العلم والدين، والآداب، والشعر، والحكمة، ودخلت الأمة في نفق التقليد الأعمى، وكان مظلماً شديد الظلمة.

وأصبحت الجامعات الكبرى كالأزهر، والزيتونة تهتم بالمتون وترقى في الشروح، ومن بلغ الذروة في العلم والمعرفة فهم ما في الحواشي، وعاش العالم الإسلامي في عزلة سياسية وعلمية مخيفة، فلا علاقة له بشعوب الأرض إلا من خلال النزاع السياسي، والصدام العسكري، فتجمدت حياته العلمية وانتهت إلى ترديد كتب وعبارات الأقدمين والمجتهد النحرير من يفهمها⁽¹⁾.

«وأصبح العلم مع الزمن، احتكاراً لأسر معينة، وغدت طبقة العلماء طبقة اجتماعية ذات امتيازات خاصة، واتخذت موقفاً صلباً ضد كل تجديد في عالم الفكر، فقد قاوموا إدخال المطابع إلى الدولة وطباعة الكتب الدينية الإسلامية»⁽²⁾.

وكان العلماء هم المشرفون على التربية والتعليم في الدولة، ولم يستطع العلماء أن

(1) انظر: إمام التوحيد، ص(17).

(2) انظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص(6).

يجعلوا للتعليم في المدارس والمعاهد برنامجاً متطوراً يتناسب مع عصرهم، وقد تحدث بعض المفكرين عن عيوب التعليم متخذين من الأزهر الشريف مثلاً على ما وصلوا إليه؛ فقد قال محمد خليل المرادي عن عيوب التعليم في الأزهر ما يلي:

- 1 - قبول أبناء الأكابر والأغنياء في الأزهر ممن لا يتمتعون بمستوى تعليمي جيد.
 - 2 - تدني مستوى الأساتذة.
 - 3 - استئثار بعض الأساتذة بتعليم كثير من المواد بحيث يعينون بدلاء عنهم مقابل مرتب زهيد.
 - 4 - تحديد الموضوعات، وضيق النظر في التدريس، فقد كان الهدف في التعليم تلقي بعض المعلومات المحدودة، أما تجاوز هذه المعلومات أو مجرد التساؤل عن صحتها، فقد يثير الشكوك ومقاومة العلماء أو قد يصل إلى حد العقاب والطرده من المعهد أو فقدان مصدر العيش ناهيك عن التشهير⁽¹⁾. هذه أهم ملامح الحياة الأدبية والعلمية في ذلك العصر.
- أما من الناحية الصناعية:

فقد ضيع المسلمون الأعمار، وأخلدوا إلى التقليد الأعمى، ورضوا بالجمود، ولم يتكروا في الصناعات، بل أضاعوا ما كان لديهم من صناعات قديمة، وفقدوا مهارتهم، وحاول السلطان العثماني سليم الثالث⁽²⁾ أن يهتم بالإصلاح الصناعي، فأنشأ مدارس جديدة، وكان يعلم بنفسه في مدرسة الهندسة، وألف جيشاً على الطراز الحديث فنار عليه الجيش لغرابة ذلك، وتم قتله.

ومن الناحية الدينية:

«كان علماء الدين في الدولة العثمانية يعتبرون أنفسهم حماة الشريعة والحريصين على التمسك بمذهب أهل السنة، إذ كان دين الدولة الإسلام ومذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي، وكان على رأس هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ووظيفته شبيهة بوظيفة الخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة في ظل حكم المماليك، وكان مركزه معادلاً لمركز الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ويتمتع شيخ الإسلام بصلاحيات إصدار الفتاوى في القضايا الكبرى، كأن يصدر فتوى بعزل السلطان أو إعلان الجهاد، ولكنه من الناحية العلمية يعين من قبل السلطان ويولي شيخ الإسلام في منصبه (قاضيا العسكر) في الروملي، والأناضول، وقاضي استانبول، ويوليهم عدد

(1) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، علي المحافظ، ص(15.14).

(2) انظر: ترجمته في كتاب: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، صادر عن دار المعرفة - بيروت.

من القضاة يكونون جميعاً مع شيخ الإسلام (المجلس الأعلى للعلماء)⁽¹⁾.

وجمد المسلمون في علوم دينهم فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

وجعلوا لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتياً وإماماً، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد كلٌ ينتصر لمذهبه، وكلٌ يصلي خلف إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد، كما أن الإفتاء في أي مسألة حسب مذهب السائل، وحرّم على الناس خروجهم عنها، وأغلق باب الاجتهاد بمغاليق من حديد، وكان علماء الدين كما وصفهم المؤرخ الجبرتي: (إنهم قد زالت هيبتهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآثم، والمسارعة إلى اللوائم في الأفراح والمآثم، يتكالبون على الأسمطة، كالبهائم، فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين ولما وجب عليهم من النصح تاركين)⁽²⁾.

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وعندما دخل نابليون بونابرت مصر غازياً، استفاد من أمثال أولئك العلماء وألف منهم ديوان القضاء وقال: «إني أستعين بهم لاتقاء أثر العقبات إذ أن أكثرها دينية، ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصاناً، ولا أن يقوموا بأي عمل حربي، وقد استفدت منهم كثيراً، واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب»⁽³⁾.

وليس معنى ذلك أنه لم يكن لبعض العلماء دور في محاربة نابليون، بل إن ثورات القاهرة المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي قادها علماء الأزهر، ولقد تعرضت لها في كتابي الدولة العثمانية.

لقد انتشرت في ذلك العصر الدعوات المنحرفة، والأفكار المسمومة، وكثرت مظاهر تقديس القبور، وطلب الحاجات من أصحابها وبناء القباب الضخمة عليها والصلاة حولها، وارتكاب البدع الخطيرة، وانتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها، وغربها، عريبها وعجميها، لقد ضاع مفهوم العبادة الصحيح، والولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها ﷺ، فكان من الطبيعي أن تتعرض لضربات أعدائها، وأطماعهم

(1) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ص(12).

(2) انظر: إمام التوحيد، ص(22).

(3) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص(12).

الشريرة، فإذا نظرنا للدولة العثمانية، نجدها قد انقلبت إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، وكثر السلب والنهب، وفقد الأمن، وانحرف بعض السلاطين عن الصواب، يقول محمد كمال جمعة: «وكانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالجواري والسبايا، وكان بعض أولئك السبايا أجنبيات من بلاد أجنبية فكن عيوناً لدولهن على الدولة العثمانية»⁽¹⁾.

«وقد تعالی سلاطين هذه الدولة على الرعية فإذا خاطبوا الرعية كانوا لا يوجهون الخطاب إليها مباشرة بل يقولون لولاتهم: بلغوا عبيد بابنا العالی»⁽²⁾.

وكانت الدولة العثمانية في آخر زمانها لا تحارب التصوف المنحرف بمختلف طرائقه وبصوره التي بعدت عن الإسلام بعداً شاسعاً، وكانت قد دخلت عليه عادات بعضها نصرانية، كالرهبانية، واللعب بذكر الله، وابتداع أساليب فيه، كالرقص، والغناء والصياح، والتصفيق... إلخ.

فإذا نظرنا إلى بلاد فارس، نجد الدولة الصفوية الراضية قد عاصرت الدولة العثمانية، وكانت تدعي الإسلام وهي دولة رافضة على مذهب الإمامية وكانت تغالي في الرفض حتى أنها حاربت الدولة العثمانية - لأنها منسوبة إلى السنية - أشد الحرب بتحريض من النصارى والصليبيين، واستجابة لمعتقدتهم الفاسد.

أما إذا نظرنا إلى بلاد الهند، فقد كانت الدولة المغولية، لكنها كانت بقية ورثها أبناء ملك الهند المغولي أكبر خان، وقد قرب الشاعر الشيعي المسمى الملا مبارك ووليد، أبا الفائز (وكان شاعراً متصوفاً) وأبا الفضل (وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية المنحرفة)، وجعل فتح الله الشيرازي من أكابر علماء الشيعة من فارس مستشاره الشرعي، وهو شديد الوطأة على علماء أهل السنة، وألقى اللسان العربي من بلاطه وجعل الفارسي مكانه، وكان ميالاً إلى التصوف المنحرف ويراه أرقى طريقة إسلامية، وهو على طريقة تصوف أهل وحدة الوجود، وله عقائد أخرى منها تناسخ الأرواح، أخذه عن البراهمة⁽³⁾.

مما دعا الشيخ العالم ولي الله الدهلوي (ت 1176 هـ) في نهاية هذا العصر المغولي أن يقوم بجهود تكسر الجمود، وتطلق العقول لتمشى مع صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان⁽⁴⁾، لكن انتهت دولة المغول في الهند، وطمعت البرتغال الكافرة في مسلمي الهند بسبب فساد ملوك

(1) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص(12).

(2) انظر: المصدر السابق نفسه، ص(13).

(3) انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، للمودودي، ص(69 . 79).

(4) المصدر السابق نفسه، ص(79 . 80).

هذه الدولة المغولية، وقامت حروب داخلية كثيرة، وتغلب فيها الهندوس واستعمرتها شركة الهند الشرقية الإنجليزية حوالي 1175 هـ⁽¹⁾.

وأما المغرب الأقصى:

كانت دولة العلويين تعاني من خلافات القبائل وثورات البربر ونزاع الطامعين على العرش، وتحاول جاهدة في الحفاظ على نفسها أمام أطماع الدول الاستعمارية، وقد كان لها قبل ذلك القرن أسطول بحري قوي حمى حدودها البحرية، وفرض احترامها على الدول الأوروبية ولكنها خسرت في عهد السلطان سليمان الذي أهمله واختار اتباع طريقة عقد المعاهدات مع الدول الأوروبية، وعندما حاول ابنه السلطان عبد الرحمن إعادة بناء الأسطول وقفت له تلك الدول بالمرصاد وأجبرته على التخلي عن عزمه⁽²⁾.

وبدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي دولاً كلما أتاحت لها الفرصة، لقد اهتز المسلمون لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازاً عنيفاً، كما أثر عليهم احتكاكهم بالغرب، واطلاعهم على تقدمه، بالإضافة إلى إحساس بعضهم بتخلف المسلمين وانحطاطهم.

ومن هنا نبتت حركات الإصلاح التي تابعت في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي، وتحدي العالم الصليبي الأوروبي للعالم الإسلامي واحتلاله أجزاء منه، فقامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم، لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، بعدما أطبقت الجهالة على الأرض، وخيمت الظلمات على البلاد، وانتشر الشرك والضلال والابتداع في الدين، وانطمس نور الإسلام، وخفي منار الحق والهدى وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبقَ سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئاً، واختفت السنة وظهرت البدعة، وترأس أهل الضلال والأهواء وأضحى الدين غربياً والباطل قريباً، حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح ويصاب بياس قاتل في أية محاولة تهدف إلى ذلك.

فكانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمته الله - تعد البداية الحقيقية لما حدث في

(1) انظر: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص(20، 21).

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(12).

العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين⁽¹⁾.

لقد كان أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عظيماً في العالم الإسلامي، ويكفي في ذلك أن تكون عقيدة أهل السنة آخذة في الظهور والزيادة والقوة، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد، وبدأت الأمة تلتمس كتاب الله وسنة رسوله، لتسير على هدى الإسلام الصحيح في حياتها.

وظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين، وكان لدعوته أثر في مسيرة الأمة الإسلامية في الشمال الإفريقي، وغربها ووسطها، وكذلك في الحجاز وغيرها من أقطار العالم الإسلامي، وترك للصفحات القادمة إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن حياته، ورحلاته، وأعماله، وكيف عاش واقع المسلمين المؤلم، وخطر الأوربيين المحدق، فاندفع يعمل محاولاً الإصلاح، وما العوامل التي أثرت عليه ودفعته إلى القيام بحركته؟ وما مؤلفاته وأفكاره؟ وما نظامه الحركي الذي سار عليه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟.



(1) انظر: الانحرافات العقيدية والعلمية، للزهراي (2/358).